الوَحْدَةُ الخامِسَةُ: دَعِ الخَوْفَ وابْدَأِ الحَياةَ

"الخَوْفُ مِنَ الموْتِ غَريزةٌ حَيَّةٌ لا مَعابَةَ فِيهَا.. وإنَّما العَيْبُ أَنْ يَتَغَلَّبَ هَذَا الخَوفُ عَلَيْنَا وَلَا نَتَغَلَّبْ عَلَيْهِ"

عَبَّاسُ مَحْمُودِ العَقَّادُ

المُفْرَداتُ وَالتَّراكيبُ:

خَلَدَا	يَحْرُزَا
بَاهِظَ	مُحَاقاً
مَأْهُولٌ	يُرْسِلُ ضَوْءًا خَافِتًا
مُوحِشٌ	يُجَارِيه
طَقْطَقَةٌ	مُنْعَطَفٌ

المَهارَةُ:

التَّسَلْسُلُ (تَتَابُعُ الأَحْدَاثِ)

الإسْتراتيجيَّةُ:

طَرْحُ السُّؤَالِ

نَوْعُ النَّصِّ:

قِصَّةٌ وَاقِعِيَّةٌ

تَعَرَّفِ الْكاتِبَةَ:

فَاطِمَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ البريكي:

- كَاتِبَةٌ وَنَاقِدَةٌ إِمَارَاتِيَّةٌ.
- المُدِيرُ العِلْمِيُّ وَالتَّرْبَوِيُّ فِي مُؤَسَّسَةِ بِدَايَةَ للإِعْلَامِ — المُنْتِجَةِ لِبَرْنَامَجِ افْتَحْ يَا سِمْسِمْ.
- أُسْتَاذَةٌ جَامِعِيَّةٌ سَابِقًا وَرَئِيسَةُ قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا بِجَامِعَةِ الإِمَارَاتِ.
- لَهَا أَعْمَالٌ أَدَبِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، مِنْ كُتُبِهَا المَطْبُوعَةِ: «الأَدَبُ البَصَرِيّ»، «الكِتَابَةُ وَالتِّكْنُولوجيَا»، «الكِتَابَةُ فِي الدَّرْسِ البَلَاغِيّ»، «فَضَاءَاتُ الإِبْدَاعِ الأَدَبِيّ فِي عَصْرِ التِّكْنُولوجيَا الرَّقْمِيَّة»... إِضَافَةً إِلَى كُتُبٍ أُخْرَى لِلأَطْفَالِ مِنْهَا «لِهَذَا أُقَبِّلُ يَدَ أُمِّي» وَ «رُمُوشِي فَرَاشَتِي».
- حَاصِلَةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الجَوَائِزِ المَحَلِّيَّةِ

الخوف يأتي من الداخل

تأليف
الدكتورة فاطمة البريكي

رسوم
ديانا بشور

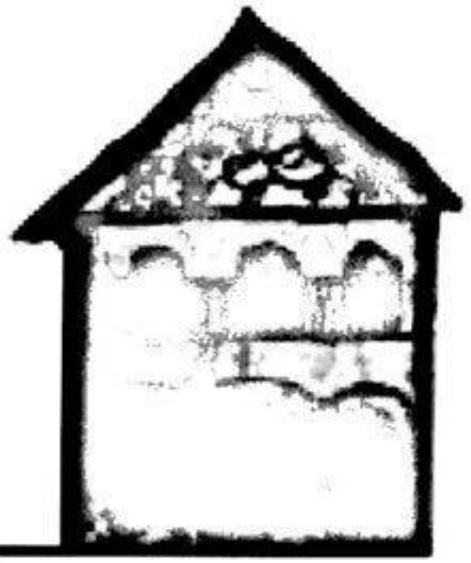

(1)

حينَ أَنْهى يونُسُ دِراسَةَ اخْتِبارِ النَّحْوِ مَعَ وَلِيدٍ ابْنِ عَمِّهِ اكْتَشَفَ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ تَأَخَّرَ كَثِيرًا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَعودَ لِمَنْزِلِهِ حالًا. لَمْ تَنْجَحْ مُحاوَلاتُ وَلِيدٍ فِي إِقْناعِهِ بِالْمَبِيتِ عِنْدَهُ وَهُوَ يَعِدُهُ بِإِيقاظِهِ مُبَكِّرًا جِدًّا، كَيْ يَذْهَبَ لِمَنْزِلِهِ وَيَسْتَعِدَّ لِلذَّهابِ إِلَى المَدْرَسَةِ مِنْ هُناكَ.

كَانَ عَمُّهُ وَزَوْجَتُهُ قَدْ خَلَدا لِلنَّوْمِ مُبَكِّرًا؛ لِأَنَّهُمَا يَسْتَيْقِظَانِ قُبَيْلَ الْفَجْرِ لِلْقِيَّامِ بِالْكَثِيرِ مِنَ الأَعْمَالِ حَتَّى يَنْتَهِيَا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ النَّهَارُ. أَمَّا يونُسُ وَوَلِيدٌ فَقَدْ شَغَلَهُمَا اخْتِبَارُ النَّحْوِ الَّذي لَمْ يَحْرُزا دَرَجَةً مُمْتَازَةً فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَقَدْ وَعَدا الأُسْتَاذَ بِأَنْ يُحَسِّنَا دَرَجَتَيْهِمَا فِي هَذَا الِاخْتِبَارِ، وَأَنْ يَكُونَ مُسْتَوَاهُما في هَذَا العَامِ كَمَا كَانَ العَامَ المَاضِيَ حِينَ كَانَا فِي الصَّفِّ الرّابِعِ، لِذَلِكَ لَمْ يَشْعُرَا بِالوَقْتِ حِينَ تَأَخَّرا إِلَى هَذَا الحَدِّ!

كَانَ يونُسُ يَشْعُرُ أَنَّهُ كَبِيرٌ وَشُجَاعٌ بِمَا يَكْفِي لِأَنْ يَمْشِيَ وَحْدَهُ فِي الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ الضَّيِّقِ وِشِبْهِ الْمُظْلِمِ الَّذي يَمْتَدُّ مِنْ مَنْزِلِ عَمِّهِ فِي آخِرِ الحَارَةِ إِلَى مَنْزِلِ أَهْلِهِ فِي أَوَّلِها. لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ صَرَاحَةً، لَكِنَّ إِصْرارَهُ عَلَى الذَّهَابِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمُتَأَخِّرِ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ هَذَا بِشَكْلٍ غَيْرِ مُبَاشَرٍ.

لَمْ يَتَوَقَّعْ أَنْ تَكُونَ الحَارَةُ مُظْلِمَةً جِدًّا هَكَذَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِأَنَّ مُعْظَمَ أَهَالِي الحَارَةِ يُطْفِئُونَ أَنْوَارَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَنَامُوا بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ مُبَاشَرَةً؛ كَيْ يُوَفِّرُوا ثَمَنَ الْكَهْرَبَاءِ الْبَاهِظِ الَّذي يَدْفَعُونَهُ بِصُعُوبَةٍ. رُبَّمَا كَانَ يونُسُ مُعْتَمِدًا عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَحَاقًا يُرْسِلُ ضَوْءًا خَافِتًا لَا يَكَادُ يُرَى.

أَخَذَ يونُسُ كِتَابَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالدَّفْتَرَ الَّذي يَكْتُبُ فِيهِ وَاجِبَاتِ النَّحْوِ، وَحَمَلَهُمَا بِيَدِهِ الْيُسْرَى وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ الْيُمْنَى بِثِقَةٍ مُصَافِحًا وَلِيدًا الَّذي أَشْفَقَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَشْيِ وَحِيدًا لِمَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ فِي طَرِيقٍ مُوحِشٍ؛ لِذَلِكَ قَرَّرَ أَنْ يُرَافِقَهُ، فَشَعَرَ يونُسُ بِالإِهَانَةِ:

«وَهَلْ تَرَانِي طِفْلًا صَغِيرًا حَتَّى تُرَافِقَنِي لِتَحْمِيَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ الْكَبِيرُ؟!»،

ضَحِكَ وَلِيدٌ وَأَجَابَ:

«لَنْ أُرَافِقَكَ لِأَحْمِيَكَ، لَكِنْ لِنَكُونَ أَقْوَى وَنَحْنُ مَعًا، بَدَلًا مِنْ أَنْ تَمْشِيَ وَحِيدًا فِي هَذَا الْوَقْتِ».

（2）

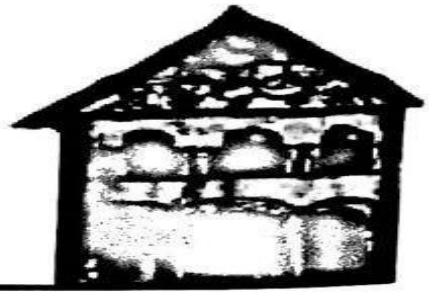

رَفَضَ يونُسُ كَلَامَ وَلِيدٍ رَفْضًا قَاطِعًا، وَوَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ وَهُوَ يَغْمِزُ لَهُ بِأَنَّهُ سَيَراهُ غَدًا فِي الْمَدْرَسَةِ. وَسَمِعَ صَوْتَ الْبَابِ خَلْفَهُ وَهُوَ يُغْلَقُ بِرِفْقٍ، وَلَكِنّهُ مَعَ ذَلِكَ أَحْدَثَ صَوْتًا بَدَا مُرْتَفِعًا فِي سُكُونِ اللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ.

لَمْ يَلْتَفِتْ يُونُسُ، وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ بِخُطُوَاتٍ ثَابِتَةٍ.

بِمُجَرَّدِ أَنْ بَدَأَ فِي الْمَشْيِ قَسَّمَ يونُسُ الطَّرِيقَ أَمَامَهُ إِلَى مَرَاحِلَ، كَيْ يُسَهِّلَ عَلَى نَفْسِهِ قَطْعَ هَذِهِ الْمَسَافَةِ الطَّوِيلَةِ: المَرْحَلَةُ الأولى هِيَ الطَّرِيقُ الَّتي تَمْتَدُّ مِنْ مَنْزِلِ عَمِّهِ أَبِي وَلِيدٍ إِلَى بِقالَةِ السَّوْسَنِ، وَالمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ تَمْتَدُّ مِنْ بِقالَةِ السَّوْسَنِ إِلَى الْمَنْزِلِ الْحَجَرِيِّ الْقَدِيمِ.. هُنَا تَذَكَّرَ أَنَّ هَذَا الْمَنْزِلَ غَيْرُ مَأْهُولٍ، وَارْتَعَدَ قَلِيلًا لِهَذَا الخَاطِرِ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ نَفَضَ عَنْهُ الخَوْفَ، وَاسْتَمَرَّ فِي تَقْسِيمِ الْمَرَاحِلِ.

المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ تَمْتَدُّ مِنَ الْبَيْتِ الْحَجَرِيِّ الْقَدِيمِ إِلى مَحَلِّ الخَضْراواتِ وَالْفَواكِهِ الَّذي يَقَعُ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ تَمَامًا.. أُووووهْ.. لَا يَزَالُ الطَّرِيقُ طَوِيلًا أَمَامَهُ، وَهُوَ مُتْعَبٌ جِدًّا، وَيَكَادُ يَغْلِبُهُ النُّعَاسُ، وَيَوَدُّ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الْكِتَابِ وَالدَّفْتَرِ اللَّذَيْنِ يَحْمِلُهُمَا؛ لِكَيْ يَمْشِيَ خَفِيفًا، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ تَرْكَهُمَا فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الطَّرِيقِ، لِذَلِكَ يَنْقُلُهُمَا كُلَّ مَرَّةٍ مِنْ يَدٍ إِلَى أُخْرَى، وَمَرَّاتٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَضَعَهُمَا فَوْقَ رَأْسِهِ، لَكِنَّهُ لَا يُجَازِفُ بِتَرْكِهِمَا دُونَ أَنْ يُمْسِكَ بِهِمَا عَلَى الأَقَلِّ بِإِصْبَعَيْنِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمَا سَيَسْقُطَانِ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، وَسَيُحْدِثَانِ صَوْتًا مُزْعِجًا لَا يُرِيدُ سَمَاعَهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ بِالذَّاتِ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، سَمِعَ يُونُسُ صَوْتًا خَلْفَهُ، لَمْ يُمَيِّزْهُ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَصْدَرَهُ، كَمَا لَمْ يَعْرِفْ صَوْتَ مَاذَا بِالضَّبْطِ،

بقالية السور

وَشَعَرَ بِرِعْدَةٍ سَرَتْ فِي جَسَدِهِ كُلِّهِ، لَكِنَّهُ تَجَاوَزَهَا وَتَجَاهَلَ مَا سَمِعَهُ أَوْ ظَنَّ أَنَّهُ سَمِعَهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ. كَانَ يُدْرِكُ بِأَنَّ الِالْتِفَاتَ لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ سَيَزْرَعُ الخَوْفَ فِي قَلْبِهِ، وَسَيَجْعَلُهُ يَلْتَفِتُ طُوَالَ الطَّرِيقِ، وَهُوَ مَا لَا يُرِيدُهُ؛ فَهُوَ «رَجُلٌ» شُجَاعٌ وَقَوِيٌّ، وَلَا يُخِيفُهُ صَوْتٌ عَابِرٌ.

فِي هَذَا الْوَقْتِ كَانَ قَدْ قَطَعَ المَرْحَلَةَ الأولى، وَهَا هُوَ ذَا الآنَ يَمْشِي بِمُحَاذَاةِ بِقَالَةِ السَّوْسَنِ، وَيَتَسَاءَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ:

«لِمَاذَا اخْتَارَ صَاحِبُهَا الحَاجُّ موسى هَذَا الِاسْمَ؟، لَا بُدَّ أَنَّهُ يُحِبُّ زَهْرَةَ السَّوْسَنِ، أَوْ أَنَّهُ اسْمُ زَوْجَتِهِ أَوْ ابْنَتِهِ!..».

وَهُنَا سَمِعَ طَقْطَقَةً قَرِيبَةً مِنْهُ..

طَقْ طَقْ.. طَطَطَقْ طَقْ..

لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَحْدِيدِ اتِّجَاهِها، لَكِنَّهُ سَمِعَهَا بِالفِعْلِ، وَتَسَاءَلَ مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ؟؟؟ وَسُرْعانَ ما لامَ نَفْسَهُ عَلى انْشِغالِهِ بِهذهِ الأَصْواتِ الَّتي تُسْمَعُ عادَةً إذا كانَ المكانُ هادِئًا جدًّا، في ليلٍ أوْ نهارٍ، وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ لمْ يُكْمِلْ تَقْسيمَ مَراحِلِ الطَّريقِ.

(3)

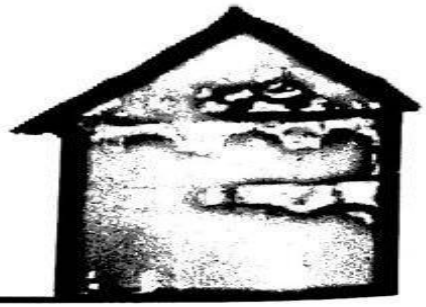

واصَلَ التَّقسيمَ:

المَرْحَلَةُ الرّابِعَةُ تَمْتَدُ مِنْ مَحَلِّ الخَضْراواتِ وَالفَواكِهِ إلى مَنْزِلِ الحاجَّةِ زَيْنَبَ، فَمَنْزِلُها يُعَدُّ مِنَ العَلاماتِ المُمَيَّزَةِ في هذا الطَّريقِ، وَكَثيرًا ما اسْتَخْدَمَهُ النّاسُ في تَوْصيفِ بَعْضِهِمْ: «سَأَنْتَظِرُكَ عِنْدَ المَنْزِلِ الأَزْرَقِ»، أَوْ «إذا تَرَكْتَ المَنْزِلَ الأَزْرَقَ عَلى اليَمينِ، وَتَجاوَزْتَ مَنْزِلَيْنِ بَعْدَهُ سَيَكونُ الثّالِثُ مَنْزِلي»، وَهكَذا.. إنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكونَ كَذلِكَ بِالفِعْلِ؛ لأَنَّ لَوْنَهُ الأَزْرَقَ يَجْعَلُهُ مُمَيَّزًا وَمُخْتَلِفًا عَنْ كُلِّ البُيوتِ الرّاقِدَةِ مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ جِدًّا عَلى يَمينِ وَشِمالِ شارِعِ اللّولو الَّذي يَسيرُ فيهِ يونُسُ الآنَ.

وهذا ما أَرادَتْهُ الحاجَّةُ زَينَبُ صاحِبَةُ المَنْزِلِ، فَهِيَ امْرَأَةٌ مُسِنَّةٌ، وَلا تَسْتَطيعُ أَنْ تُقَدِّمَ وَصْفًا دَقيقًا لِمَنْزِلِها حينَ تَشْتَرِيَ شَيئًا مِنْ أَحَدِ الباعَةِ في الحاراتِ المُجاوِرَةِ، وَتَطْلُبُ مِنْهُمْ تَوْصيلَهُ لِمَنْزِلِها،

لذلكَ فَكَّرَتْ في أَنْ تَصْبِغَهُ بِلَوْنٍ يَجْعَلُهُ مُخْتَلِفًا، وَيُوَفِّرُ عَلَيها كلامًا كَثيرًا إِذْ تَكْتَفِيَ بِأَنْ تَقولَ: «مَنْزِلي هُوَ المَنْزِلُ الأَزْرَقُ الوَحيدُ في شارِعِ اللّولو».

شَعَرَ يونُسُ أَنَّهُ انشَغَلَ كثيرًا بمنزِلِ الحاجَّةِ زينبَ، وفي تلكَ الأَثْناءِ كانَ يمشي بمُحاذاةِ المنزِلِ الحَجَرِيِّ القَديمِ.. انتَبَهَ لِنَفْسِهِ وهُوَ يَمُرُّ أمامَ هذا المنْزِلِ الَّذي يَخافُ أَولادُ الحارَةِ منَ المُرورِ أمامَهُ نَهارًا، وهوَ الآنَ يَمُرُّ أمامَهُ لَيلًا، والنّاسُ كلُّهُمْ نيامٌ، بلْ غارِقونَ في النَّوْمِ، وحيْدًا بلا رَفيقٍ ولا حامٍ. يَشْعُرُ أَنَّ خُطُواتِهِ ثَقيلَةٌ بَطيئَةٌ، وهوَ يُريدُ أنْ يُسْرِعَ أكثرَ في هذا المَكانِ بالذّاتِ، لكنْ لا يعرِفُ لماذا لا تُساعِدُهُ رِجْلاهُ.. وَبَدا كأَنَّ الجَوَّ حارٌّ جِدًّا، وَكأَنَّ هُناكَ خُطُواتٍ تُرافِقُ خُطُواتِهِ، تَتْبَعُها.. لكِنَّهُ لَنْ يَسْتَسْلِمَ لِهذا الإِحْساسِ، فهُوَ مُتَأَكِّدٌ أَنَّ كُلَّ أَهْلِ الحارَةِ نائِمونَ في هذا الوَقْتِ،

وَمِنَ المُسْتَحيلِ أَنْ يَكونَ هُناكَ شَخْصٌ آخَرُ غَيْرُهُ مُسْتَيْقِظًا، وَيَمْشي في الشّارِعِ نَفْسِهِ، وَفي المَكانِ نَفْسِهِ، وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ!

أَقْنَعَ نَفْسَهُ بِذلِكَ، وَتَجاوَزَ مُنْعَطَفًا كَبيرًا يَقَعُ هذا البَيتُ القَديمُ عَلَيْهِ، وَفَكَّرَ:

«لماذا هَجَرَ أَصْحابُ هذا البَيْتِ الكَبيرِ المَكانَ وَرَحَلوا؟»،

«لماذا خَلَّفوا بَيتًا كَبيرًا فارِغًا من النّاسِ، وَمَليئًا بِكَثيرٍ مِنَ الأَسْرارِ وَالحَكايا الَّتي لا يَعْرِفُها الصِّغارُ، وَلكِنَّهُم يَنْسُجونَ بَدَلًا مِنْها حِكاياتِهِمْ الخاصَّةَ عَنِ المارِدِ الَّذي سَكَنَ البيتَ بَعْدَ أَنْ طَرَدَ أَهْلَهُ مِنْهُ، وَعَنِ المَخلوقاتِ الغَريبَةِ الَّتي لَها أُذُنٌ واحِدَةٌ، أَوْ ثَلاثَةُ أَرْجُلٍ، وَهِيَ تَأْكُلُ أَيَّ طِفْلٍ يُحاوِلُ الدُّخولَ إلى هذا المَنْزِلِ في لَيْلٍ أَوْ نَهارٍ؟».

(4)

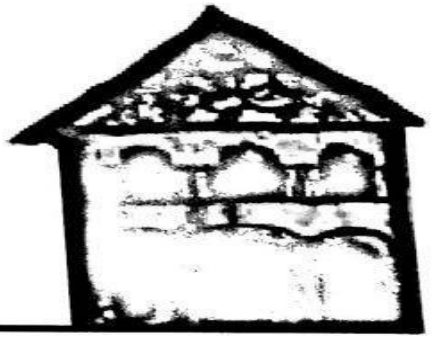

هذا ما خَطَرَ في بالِ يونُسَ وَهُوَ يمْشي وَحيدًا في ذلِكَ اللَّيلِ الموحِشِ، مُتَجاوِزًا المُنْعَطَفَ الَّذي يَفْصِلُ جُزْأَيِ الشّارِعِ الشَّمالِيِّ وَالجَنوبِيِّ عَنْ بَعْضِهِما، وَهُوَ لَيْسَ المُنْعَطَفَ الوَحيدَ، إِذْ سَتَأْتي بَعْدَهُ عِدَّةُ مُنْعَطَفاتٍ أُخْرى، وَلكِنَّها أَصْغَرُ مِنْهُ، وَلا توجَدُ عَلَيها – لِحُسْنِ الحَظِّ – مَنازِلُ مَهْجورَةٌ.

وَلِلَحْظَةٍ، شَعَرَ بِقَليلٍ مِنْ نَدَمٍ لِعَدَمِ قَبولِهِ المَبيتَ عِنْدَ وَليدٍ، لكِنَّهُ تَراجَعَ عَنْ نَدَمِهِ بِسُرْعَةٍ، وَأَقْنَعَ نَفْسَهُ:

«هكَذا سَأَكونُ أَقْوى!»

نَسِيَ يونُسُ أَنْ يُواصِلَ تَقْسيمَ المَراحِلِ، وَأَصْبَحَ تَفْكيرُهُ مُرَكَّزًا عَلى كَيْفِيَّةِ الوُصولِ إِلى مَنْزِلِهِ في أَسْرَعِ وَقْتٍ، لأَنَّهُ بِمُجَرَّدِ أَنْ تَجاوَزَ ذلِكَ المُنْعَطَفَ الكَبيرَ بَدَأَ يَشْعُرُ بِخُطُواتٍ تَتْبَعُهُ بِوُضوحٍ.. كانَ راغِبًا بِشِدَّةٍ في الالْتِفاتِ إِلى الوَراءِ،

لكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ بَدَأَتْ خُطُواتُهُ تَتَسارَعُ دونَ أَنْ يَكونَ لَهُ عَلَيها سَيْطَرَةٌ، وَكُلَّما تَسارَعَتْ خُطُواتُهُ شَعَرَ أَنَّ تِلْكَ الخُطُواتِ خَلْفَهُ تُجاريْهِ في السُّرْعَةِ. بَدا وَكَأَنَّهُ يَسْمَعُ دَقّاتِ قَلْبِهِ وَهِيَ تُقْرَعُ كالطُّبولِ.. إِنَّها تَتَسارَعُ أَيْضًا وَتَرْتَفِعُ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتّى لَمْ يَعُدْ يُمَيِّزُ إِنْ كانَ صَوْتُها يَأْتي مِنَ الدّاخِلِ أَوْ مِنَ الخارِجِ. وَفي هذِهِ الأَثْناءِ تَجاوَزَ عِدَّةَ مُنْعَطَفاتٍ صَغيرَةٍ عَلى الطَّريقِ، وَلَمْ يَشْعُرْ كَيفَ بَلَغَ مَنْزِلَ الحاجَّةِ زَينبَ، وَكيفَ تَجاوَزَهُ، فَتَفْكيرُهُ مُنْصَبٌّ عَلى الحَرَكَةِ الأَكيدَةِ الَّتي يَشْعُرُ بِها خَلْفَهُ، وَلا يَعْرِفُ لماذا يَكْتَفي مَنْ يَتْبَعُهُ بِالسَّيْرِ خَلْفَهُ فَقَطْ.. لماذا لا يُكَلِّمُهُ، لا يَصْرُخُ فيْهِ، لا يَطْلُبُ مِنْهُ التَّوَقُّفَ، أَوْ حَتّى يَضْرِبَهُ أَوْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ.. وَلِأَنَّ شَيئًا مِنْ هذا لَمْ يَحْدُثْ فَقَدْ عادَتِ السَّكينَةُ جُزْئِيًّا لِنَفْسِهِ الَّتي حاوَلَ إِقْناعَها بِأَنَّها مُجَرَّدُ أَوْهامٍ وَتَخَيُّلاتٍ تَكَوَّنَتْ في ذِهْنِهِ حينَ مَرَّ أَمامَ المَنْزِلِ الحَجَرِيِّ القَديمِ لأَنَّهُ مَهْجورٌ.

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ مَرَّ ذِكْرُ المَنْزِلِ الحَجَرِيِّ المَهْجورِ عَلى ذِهْنِهِ مَرَّةً أُخْرى حتّى وَجَدَ نَفْسَهُ دونَ أَنْ يَشْعُرَ مُسْتَسْلِمًا لأحاسيسِ الخَوفِ الَّتي عادَتْ وَسَيْطَرَتْ عَلَيْهِ بِإحْكامٍ هذِهِ المَرَّةِ، مُرْهِفًا السَّمْعَ لِوَقْعِ الخُطُواتِ، وَلِصَوْتِ الأَنْفاسِ الَّتي بَدَأَ يَسْمَعُها بِوُضوحٍ خَلْفَهُ، شاعِرًا بِحَرارَتِها الَّتي صارَتْ تَلْفَحُ عُنُقَهُ، هُناكَ كائِنٌ حَقيقِيٌّ خَلْفَهُ، يَتْبَعُهُ مِنْ مُنْتَصَفِ الطَّريقِ، وَهُوَ الآنَ قَريبٌ جِدًّا مِنْهُ، وَيَكادُ يِهْمِسُ في أُذُنِهِ بِشَيْءٍ، لكِنَّهُ لا يُريدُ أَنْ يَلْتَفِتَ، فَمَنْزِلُ أَهْلِهِ أَمامَهُ، يَفْصِلُهُ عَنْهُ مَنْزِلانِ صَغيرانِ فَقَطْ، وَسَيَصِلُ الآنَ..

حَتّى يونُسُ الخُطا وَهُوَ مُشَتَّتُ التَّفْكيرِ:

«هَلْ هذا الَّذي يَتْبَعُهُ إِنْسانٌ أَوْ شَيْءٌ آخَرُ؟»

«رُبَّما يَكونُ هذا الَّذي يَتْبَعُني كائِنٌ لَهُ عَيْنٌ واحِدَةٌ، وَأُذُنٌ واحِدَةٌ، وَثَلاثَةُ أَيْدٍ وَثَلاثَةُ أَرْجُلٍ»، وَاقْشَعَرَّ بَدَنُهُ لِهذا الخاطِرِ الَّذي مَرَّ عَلى ذِهْنِهِ رُغْمًا عَنْهُ، وَشَعَرَ بِرِعْدَةٍ هائِلَةٍ تَسْري في جَسَدِهِ كُلِّهِ، وَبِبُرودَةٍ مَمْزوجَةٍ بِحَرارَةٍ عَلى نَحْوٍ لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ، وَلكِنَّهُ عادَ مُطَمْئِنًا نَفْسَهُ بِأَنَّ مِثْلَ هذِهِ الكائِناتِ خُرافِيَّةٌ، وَلَمْ يَسْبِقْ لِأَحَدٍ أَنْ رَآها في الحارَةِ أَوْ خارِجِها.

حينَ مَرَّ أَمامَ جِدارِ مَنزِلِهِ مُتَّجِهًا نَحْوَ البابِ وَهُوَ يُمْسِكُ مِفْتاحَهُ بِقُوَّةٍ في يَدِهِ اليُمْنى تَأَكَّدَ أَنَّ هُناكَ كائِنًا خَلْفَهُ، فَقَدْ تَرَكَ والِداهُ مِصْباحَ البَيتِ الخارِجِيِّ مُضاءً قَبْلَ أَنْ يَناموا؛ حَتّى لا يَكونَ المَكانُ مُظْلِمًا جِدًّا حينَ يَعودُ يونُسُ إلى المَنْزِلِ، وَلَمْ يَخْطُرْ في ذِهْنَيْهِما أَنَّهُ سَيَتَأَخَّرُ إلى الحَدِّ الَّذي سَتَكونُ مَعَهُ كُلُّ بُيوتِ الحارَةِ قَدْ أَطْفَأَتْ أَنْوارَها،

وَتَرَكَتِ الشّارِعَ غارِقًا في الظَّلامِ، كَما لَمْ يَخْطُرْ في ذِهْنَيْهِما أَنَّ مِصْباحَ البَيتِ سَيَبْقى مُضاءً طُوالَ هذا الوَقْتِ الَّذي سَيُكَلِّفُهُما مَبْلَغًا كَبيرًا مِنَ المالِ سَيَعْجَزانِ عَنْ سَدادِهِ بِكُلِّ تَأْكيدٍ.

في هذا المَكانِ.. تَأَكَّدَ يونُسُ مِنْ وَجودِ شَخْصٍ آخَرَ خَلْفَهُ مِنْ خِلالِ الظِلِّ المَرْسومِ عَلى الأَرْضِ.

في اللَّحْظَةِ الَّتي قَرَّرَ فيها يونُسُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلى الخَلْفِ، إِذا بِيَدٍ تَحُطُّ عَلى كَتِفِهِ بِرِفْقٍ بالِغٍ، دونَ أَيِّ كَلِمَةٍ أَوْ صَوْتٍ. وَقَفَ مَكانَهُ لا يَتَحَرَّكُ، كَأَنَّهُ يُفَكِّرُ ماذا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، لَو كانَ قَدْ فَتَحَ بابَ البَيتِ رُبَّما كانَ هَرَبَ بِسُرْعَةٍ، وَأَغْلَقَ البابَ خَلْفَهُ دونَ أَنْ يَرى صاحِبَ هذِهِ اليَدِ، لكِنَّهُ انْتَفَضَ قائِلًا لِنَفْسِهِ بِإِصْرارٍ:

لا، لا يُمْكِنُ أَنْ أَهْرُبَ حَتّى لَوْ كانَ البابُ مَفْتوحًا ،

وَهُنا الْتَفَتَ بِهُدوءٍ جِدًّا إلى الخَلْفِ.

وَلَمْ يُصَدِّقْ عَيْنَيْهِ!!!

«وَلييييييييييييييييييد»،،،، ماذا تَفْعَلُ هُنا؟؟ وَمُنْذُ مَتى وَأَنْتَ تَتْبَعُني؟؟؟

وَلَمْ يَكُنْ وَليدٌ في حاجَةٍ إلى أَنْ يُخبِرَهُ أَنَّهُ يَتْبَعُهُ مُنْذُ أَنْ أَغْلَقَ بابَ مَنْزِلِهِ حينَ وَدَّعَهُ هُناكَ، لكِنَّهُ كانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِإِعْجابٍ شَديدٍ، وَيونُسُ يَشْعُرُ باسْتِغرابٍ أَشَدَّ.

وَليدٌ، لماذا مَشيْتَ خَلْفي كُلَّ هذِهِ المَسافَةِ؟ وَلماذا كُنْتَ تَتْبَعُني في هُدوءٍ طُوالَ الطَّريقِ، وَلَمْ تُكَلِّمْني أَبَدًا؟ لماذا لَمْ تُخبِرْني أَنَّكَ أَنْتَ الَّذي كُنْتَ تَتْبَعُني؟

فَسَأَلَهُ وَليدٌ مُسْتَغْرِبًا:

وَهَلْ كُنْتَ تَشْعُرُ أَنَّ هُناكَ مَنْ يَتْبَعُكَ؟ لا أَظُنُّ أَنَّكَ شَعَرْتَ بِوُجودي أَبَدًا؛ فَقَدْ كُنْتَ تَمْشي بِثِقَةٍ وَشَجاعَةٍ

وَجُرْأَةٍ غَيْرَ مُبالٍ بِأَيِّ شَيْءٍ حَوْلَكَ، لِدَرَجَةِ أَنَّني لَمْ أَشْعُرْ بِأَيِّ خَوْفٍ طُوالَ الطَّريقِ؛ لِأَنَّني رَأَيْتُ كُلَّ هذِهِ الصِّفاتِ مُتَجَسِّدَةً فيكَ وَأَنْتَ تَسيرُ أَمامي، وَنَسيْتُ خَوْفي .

سَعِدَ يونُسُ بِما سَمِعَهُ مِنْ وَليدٍ:

هَلْ رَأَيْتَ شَجاعَتي حَقًّا يا وَليدُ؟ هَلْ شَعَرْتَ بِها؟

نَعَمْ، أُقْسِمُ لَكَ عَلى ذلِكَ، وَقَدْ كُنْتُ أَغْبِطُكَ؛ لِأَنَّكَ تَمْشي وَأَنْتَ عَلى يَقينٍ بِأَنَّكَ وَحيدٌ، وَمَعَ ذلِكَ لَمْ تَكُنْ خائِفًا، وَأَنا أَيْضًا لَمْ أَكُنْ خائِفًا، إِلّا أَنَّ الأَمْرَ يَخْتَلِفُ مَعِيَ؛ فَأَنا أَعْرِفُ أَنَّكَ مَوجودٌ، وَأَراكَ تَمْشي أَمامي، وَهذا يَبْعَثُ الاطْمِئْنانَ في نَفْسي،..

لكِنّي سَأُخْبِرُكَ بِسِرٍّ: لَقَدْ شَعَرْتُ بِخَوْفٍ شَديدٍ عِنْدَما مَرَرْنا أَمامَ المَنْزِلِ الحَجَرِيِّ القَديمِ، وَتَسارَعَتْ خُطُواتي هُناكَ، وَكُنْتُ أُحاوِلُ أَنْ أَكونَ قَريبًا جِدًّا مِنْكَ كَيْ أَشْعُرَ بِالأَمانِ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ سَتَشْعُرُ بِوُجودي حيْنَها،

فَقَدْ كُنْتُ قَريبًا جِدًّا مِنْكَ، لكِنَّكَ – يا لَشَجاعَتِكَ– لَمْ تَشْعُرْ بِشَيْءٍ، بَلْ كُنْتَ ماضِيًا في طَريقِكَ بِشَجاعَةٍ وَثِقَةٍ أَخْجَلَتْني مِنْ نَفْسي .

شَعَرَ يونُسُ بِالزَّهْوِ مِنْ هذا الإطْراءِ، وَلَمْ يَقُلْ أَيَّ شَيْءٍ، بَلْ عانَقَ ابْنَ عَمِّهِ بِسَعادَةٍ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَكونَ ضَيْفَهُ في هذِهِ اللَّيْلَةِ، فَرَدَّ وَليدٌ ضاحِكًا:

وَهَلْ تَتَوَقَّعُ أَنْ أَعودَ وَحْدي في هذا الطَّريقِ الآنَ؟؟؟

وَضَحِكا معًا، ثُمَّ قَطَعا ضَحِكَهُما فَجْأَةً معًا، كَيْ لا يُزْعِجا أَهْلَ المَنْزِلِ.

وَلكِنْ هَلْ كانَ يونُسُ شُجاعًا بِالفِعْلِ وَغَيْرَ خائِفٍ عِنْدَما مَرَّ مِنْ أَمامِ المَنْزِلِ الحَجَرِيِّ القَديمِ؟ سُؤالٌ لَمْ يَصِلْ وَليدٌ إِلى جَوابِهِ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ تَتَغَيَّرَ صورَةُ يونُسَ الشُّجاعِ واثِقِ الخُطُواتِ وَهُوَ يَمْشي بِتُؤَدَةٍ أَمامَهُ.

يمكننا أن نتجاوز خوفنا ... بإرادتنا
لأن الخوف يأتي من دواخلنا

المؤلفة